﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا ٨٩﴾ [النساء: 89]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا أخبرَ اللّٰهُ بضلالِ المنافقينَ وثباتِهم عليه؛ أَعلمَ في هذهِ الآيةِ بإغراقِهم في الكُفرِ، ومبالغتِهم فيه، فهم يَتَمَنَّونَ أَنْ تَصيرُوا أَيُّهَا المُسلِمُونَ كُفَّارًا، فكيفَ تُريدُونَ أنْ تهدوا مَنْ أضلّ اللّٰه تعالَى، وقد بَلَغُوا في تَعَصُّبِهِمْ في الكُفرِ إِلَى هَذَا الحَدِّ[1]، وكأنَّ الآيةَ الْكَرِيمَةَ جاءت عَقِيبَ مَا مضَى لِزيادةِ تَعْلِيلِ الْإِنْكَارِ على مَن قالَ بإيمانِهم مِنَ الْمُؤْمِنِين، وللتَّأكيدِ على كُفْرِ الْمُنَافِقِين، وهذهِ مُنَاسَبةٌ متينةٌ بينَ الآيتَيْنِ.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

رغِبَ المنافقُونَ لو تَكفُرُونَ كَكُفرِهم، وتَكُونُونَ مِثلَهُمْ سَوَاءً، فَهُم لا يَكْتَفُونَ بضلالِهم، بل يَرْجُونَ إضلالَ المُسْلِمينَ، ورَدَّ مَنْ يَسْتَطِيعُونَ ردَّهُ إلى الكُفرِ، فلا تتَّخذوا مِنْهُم أَنصارًا تُوَالُونَهم حتَّى يُؤمِنُوا، وَيحَقِّقُوا إيمانَهم بالهجرةِ في سبيلِ اللّٰهِ تعالَى، فإنْ تولَّوا عنْ أنْ يُهاجِروا، ولَزِمُوا الإقامةَ علَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الكُفرِ؛ فَخذُوهمْ أينَما كانُوا، واقتلوهُمْ، ولا تتَّخذُوا منهم مُحِبًّا مُقرَّبًا مِنْ دونِ اللّٰهِ سُبحانَهُ، ولا نَصيرًا يُعينُكم وَيدافعُ عنكمْ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَدُّواْ﴾: يدلُّ معنى الوُدّ على الحُبّ، وتمنّي حُصولِ الشَّيءِ، يُقالُ: وَدِدْتُهُ بمعنَى: أَحْبَبْتُهُ، فالودُّ: محبَّةُ الشّيءِ، وتشهّي ما لا مطمعَ فيه، وما لا يُتوقَّع حصولُه، فَيَكْمُنُ في الودّ معنى التَّمنّي، ويتمحّضُ للتّمنّي إذا اقْتَرَنَ بـ(لَوْ)، فيقالُ: وَدِدْتُ أَنَّ ذَاكَ كَانَ كذا، وَوَدِدْتُ لو كان كذا؛ إِذَا تَمَنَّيْتَهُ[3].

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/170.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/89، ورضا، تفسير المنار: 5/264.

(3) ابن فارس مقاييس اللغة، والسمين، عمدة الحفاظ: (ودد)، والسكاكي، مفتاح العلوم، ص: 303.

2) ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ - ﴿وَلِيًّا﴾: الوَلْيُ يَدُلُّ عَلَى قُربٍ، وَجَلَسَ مِمَّا يَلِينِي، أَي: يُقَارِبُنِي، ويعبّر بالوليّ وما يشتقُّ مِنْهُ عن كلِّ ذي علاقةٍ قريبةٍ متمكّنَةٍ، وفي الوِلايةِ معنى الاختصاصِ والقربِ، وحبِّ الخيرِ لِوليِّهِ، والفعلُ (تَوَلَّى) إذا عُدِّيَ بِنَفْسِه اقْتَضَى معنى الوَلَايَةِ، وإذا عدُّي بـ (عنْ) لفظًا أو تقديرًا اقْتَضَى معنَى الْإِعْرَاضِ وتركِ قُربِهِ، والوَلِيُّ يُطلقُ بمعنى المُناصِرِ، ويطلقُ بمعنى المُحِبِّ الوَدودِ، والنَّهيُ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا﴾ يُحْمَلَ على المعنَيَيْنِ معًا[1].

3) ﴿يُهَاجِرُواْ﴾، الهَجْرُ: تركُ الشَّيءِ، والإعْرَاضُ عَنْهُ مَكانًا أو خَليطًا، ففي الكلمةِ معنى التَّباعدِ والنَّأيِ، وهي ضدُّ الوَصلِ، وسُمِّي القبيحُ مِنَ الكلامِ هُجْرًا؛ لِكونِه مقتضيًا لِهجرِهِ، والهجرةُ: مفارقةُ الإنسانِ غيرَه؛ بالبدنِ أو باللِّسانِ أو بالقلبِ، وسُمّيَ المهاجِرُ مهاجرًا؛ لِتركِهِ وطنَهُ، وسُمّيَ مَنْ رفضَ فُضُولاتِ شهواتِه مُهاجِرًا، وصارَ اسمَ مدحٍ في الإسلامِ[2].

4) ﴿سَبِيلِ﴾: السِّين والباءُ واللَّامُ دالَّةٌ على امتدادٍ إلى أسفلَ معَ اتِّصالٍ، ومِنْهُ قولُهم: أسبلَ إزارَهُ؛ إذا أرْخاه، وأسبلَ الفَرسُ ذَنَبَه؛ أي: أَرْسَلَه، وأسبلَ ثيابَه: طوَّلَها، وأرسلَها إلى الأرضِ، والسَّبيلُ هو الطَّريقُ الموصِلُ سواءٌ أكانَ سهلًا أم صَعبًا، ويذكَّرُ ويؤنَّثُ، وهو بهذا المعنى في كلِّ القرآنِ، وإنَّما يختلفُ المرادُ به بِحسبِ السِّياقِ[3]، والمرادُ في الآية: الطَّريقُ المعنويُّ الموصلُ إلى مرضاةِ اللّهِ تعالَى، وما أَمَرَ بِسُلُوكِه[4].

5) ﴿تَوَلَّوْاْ﴾: تولَّى عَنِ الشَّيءِ؛ أي: تركَه، وأَعْرَضَ عنه، ويكونُ بمعنى انْصِرَافِ القلبِ عنِ الشَّيءِ، والإعراضِ عنه[5]، والتَّوَلّي في قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ هُوَ بِمَعْنَى الْإِعْرَاضِ عَنِ الإيمانِ والهجرةِ في سبيلِ اللّهِ تعالَى.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرَّاغب، المفردات ألفاظ القرآن: (ولي)، والعسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 248، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/1719.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (هجر)، والرَّاغب، تفسير الراغب: 3/1378.

(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (سب)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (سبل).

(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/88.

(5) الأزهري، تهذيب اللغة، والرَّاغب، المفردات: (ولي).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْوُدِّ دُونَ الْحُبِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ﴾:

انْطِوَاءُ الْكَافِرِينَ عَلَى الشَّرِّ وَإِرَادَتِهِ بِالْمُؤْمِنِينَ مُتَجَذِّرٌ قَدِيمٌ

الوُدُّ هوَ مَحبَّةُ الشَّيءِ المَقْرُونَةُ بِتَمنّيه[1]؛ والحبُّ يستعملُ في مَا يُوجِبهُ ميلُ الطِّباعِ والحكمَة جَميعًا، والوُدُّ يستعملُ في ميلِ الطِّباعِ إذا ورد بِمَعْنَى التَّمنّي[2]؛ ففيه مَعْنَى التَّشَهِّي، وبِاقْتِرَانِ ﴿لَوْ﴾ بالوُدِّ تَمَحّضَ مَعْنَاهُ للتَّمنّي المَشُوبِ بالحبِّ والتَّشهّي في حصولِ المذكور، فناسبَ ذكرُ ﴿وَدُّواْ﴾ لِمناسبةِ السِّياقِ والمقامِ، وأشعرَ هذا اللَّفظُ المقترنُ بـ ﴿لَوْ﴾ بمعانٍ:

أوَّلُهَا: أنَّ ما يودُّونَهُ مِنْ كُفرِ المؤمنين شرٌّ، فيكون ذِكْرُ الودِّ تأكيدًا لِقُبحِ الكفرِ وضَررِه.

ثانيهَا: أنَّ ما يودُّونَهُ نابعٌ ممّا انْطَوَتْ عليهِ طباعُهم السَّيّئةُ مِنَ الكُفْرِ، فَهُم يتمنّون زوالَ الخيرِ أو انقطاعَه أصلًا عنِ المُؤْمِنين؛ إشارةً إلى حسَدِهم وبَغيهِم، كما هي حالُ اليهودِ مع المُؤْمِنين، فالكفرُ مِلّةٌ واحدةٌ.

ثالثُهَا: لمّا كان الودُّ تمنّي ما لا يحصُلُ أبدًا؛ دلّ على أنَّ الكَافِرِينَ كانوا يَعْلَمُون أنْ لا مَطمعَ في كفرِ المؤمنين، ففيه تقريعٌ لِلمنافقين الكافرينَ، وبِشَارةٌ لِلْمُؤْمِنينَ.

رابعُهَا: جيءَ بالْحَرفِ المصدريّ ﴿لَوْ﴾ دُونَ (أنْ) لِما تفيدُه ﴿لَوْ﴾ باقْتِرَانِها بالفعلِ الماضِي مِن تمنّيهم كفرَ المؤمنين منذُ الزَّمنِ الماضي، ولو جاءَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (يَوَدُّونَ أنْ تَكفُروا)؛ لدلَّ على أنَّ وُدَّهُم كفرَ المُؤْمِنين إنَّما هُوَ في الزَّمنِ المُسْتَقبلِ، فلمَّا قالَ اللّه تعالَى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ﴾؛ أشعرَ أنّهم قدْ أَبْطَنُوا لهم السُّوءَ والكفرَ منذُ زمانِ كُفرِهم، فهو قديمٌ.

(1) الراغب، تفسير الراغب: 1/282.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 122.

ولو عُبِّرَ بـ (أَحَبُّوا) بدلًا من ﴿وَدُّواْ﴾؛ لَفَاتَتْ هذهِ النِّكاتُ البلاغيّةُ.

سِرُّ إِيثَارِ الْفِعْلِ الْمُضَارِعِ ﴿تَكْفُرُونَ﴾ دُونَ الْمَصْدَرِ الصَّرِيحِ:

تَمَنِّي الْمُنَافِقِينَ كُفْرَ الْمُؤْمِنِينَ وَتَجَدُّدُهُ فِيهِمْ وَاسْتِمْرَارُهُمْ عَلَيْهِ

لَمْ يَرِدِ المَصْدَرُ الصَّريحُ في قولِهِ تعَالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ﴾ بأن يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (وَدُّوا كُفرَكُمْ)، مع أنّ (لَو) المَصْدَرِيَّة تؤوَّلُ معَ الفعلِ بمَصْدَرٍ، والنُّكْتَةُ في ذلك: أنَّ في التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿تَكْفُرُونَ﴾ دِلَالةً على أنّهم كانُوا يتمنَّونَ أنْ يكونَ الكفرُ في قلوبِ أهلِ الإيمَانِ وأفعالِهم، فيظهرُ الكفرُ على أفعالِهم، ويتجدَّدُ حالًا فحالًا معَ الاستمرارِ والدَّوامِ، كما ظَهرَ الكفرُ في أفعالِ المنافقينَ.

دِلَالَةُ حَرْفِ (الْكَافِ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ﴾:

أَقْبَحُ الْكُفْرِ مَا كَانَ بَعْدَ نُورِ الْهِدَايَةِ

دلّت الكافُ في قولِه تعالَى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ﴾ عَلَى وُدّ المنافقينَ أنْ يكون كُفْرُ المؤمنين مماثلًا لكفرِهم مُشَابِهًا له، ولم يُقيَّد كُفْرُهُم بشيءٍ؛ فلم يَرِدْ: (ودّوا لو تكفرون كما كَفَرُوا باللهِ، أَو كما كفَرُوا بالرَّسُولِ ﷺ، أو كما كفروا بالقرآن)؛ لإفادة العمومِ، فيشمل التّشبيهُ استيعابَ أنواعِ كُفرِهم، ولمّا كانَ كفرُ المنافقين أقبحَ من كفرِ غيرهم؛ فقد كَانُوا يتمنّونَ لِلْمُؤْمِنِين مثلَ كُفْرِهم القَبيح؛ لِيَشْعُروا بالرّاحةِ والرِّضا عن كفرِهم بعد حُصولِ ما يتمنّونَه، كما أنّهم أرادوا أقبحَ الكفرِ، فأقبحُهُ ما كان بعد نُورِ الهداية.

بَدِيعُ الْجِنَاسِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ﴾:

تَقْبِيحُ الْكُفْرِ وَتَشْنِيعُهُ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ

ورد جِنَاسُ الاشتقاقِ بين ﴿تَكْفُرُونَ﴾ و﴿كَفَرُواْ﴾؛ لِيميلَ المُخَاطَبُونَ المؤمنونَ إلى الإصغاءِ إلى الكلامِ أكثرَ، وَلِتتشوّفَ النَّفسُ إلى بيانِ مَعْنَاه[1]؛ وفيه تنبيهُ أهلِ الإيمَانِ إِلَى شَنَاعةِ ما يتمنَّاهُ المُنَافِقُون لَهم، وتَقْبيحُ الْكُفْرِ عندَ المُؤْمِنِين بِتَكْرارِ اللَّفظِ الدالِّ على الشرِّ والقبحِ.

(1) السبكي، عروس الأفراح: 2/282.

دِلَالَةُ الْفَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾:

مُوَافَقَةُ الْكُفَّارِ فِي أَصْلِ الْكُفْرِ؛ يَجُرُّ إِلَى تَمَامِ مُمَاثَلَتِهِمْ فِيهِ

أفادت الفاءُ في قَوْلِه تعَالى: ﴿فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ تعقيبَ السّببِ الدَّافعِ للتمنّي، والمعنَى: ودُّوا لو تكفرونَ مِثْلَمَا كفَرُوا لِتكونوا مُتسَاوِينَ معَهم في الكُفرِ وما يقتضيهِ، فودُّهم متوجِّهٌ إلى أَمْرَين:

أحدهُمَا: وُدُّهم كفرَ المؤمنين مثلَ كفرِهم.

والآخَرُ: وُدُّهم أنْ يكونُوا سواءً في الطَّريقةِ والشِّرعةِ، وهذا مترتّبٌ على سابِقِه مُعَاقِبٌ له.

ولمّا دلّت الكافُ في ﴿كَمَا كَفَرُواْ﴾ على المشابهةِ المُشْعرةِ بكونِها في بعضِ الأوصافِ - كمَا هُوَ مُقْتَضَى التَّشبيه - دونَ تمام المماثَلَةِ؛ أُكِّدَتْ رغبَةَ الكفَّارِ بأنْ يكونَ المؤمنونَ معَهم سواءً في الكُفْرِ، فأُتِيَ بِجُمْلَةِ ﴿فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾؛ ليدلَّ على أنّهم لَو كفَرُوا، فسَيَكُونُونَ سَواءً شيئًا فشيئًا.

وذهبَ ابنُ عاشور إلى أنّ جُمْلَةَ ﴿فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ مؤكّدةٌ لِمضمونِ جملةِ ﴿تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ﴾[1]، ومرادُهُ: تأكيدُ بعضِ أوصافِ الكُفْرِ؛ لأنّ كلمةَ ﴿سَوَآءً﴾ أوثقُ في التَّسويةِ التَّامّةِ مِنَ المُشَابَهَةِ التي تفيدُ المثليَّةَ في بعضِ الأوصافِ دُونَ تمامِها.

دِلَالَةُ الْإِيجَازِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾:

مَا دَلَّ السِّيَاقُ عَلَى تَعْيِينِهِ يَجُوزُ حَذْفُهُ مِنَ الْكَلَامِ

قولُ اللهِ سُبحانه: ﴿فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ فيه حذفٌ، والتَّقديرُ: (فَتَكُونُونَ أَنتُمْ وَهُمْ سَوَاءً)، إلَّا أَنَّهُ اكْتُفِيَ بِذِكْرِ المُخَاطَبِينَ عَنْ ذِكرِ غيرِهم؛ لِوُضُوحِ المَعنَى بِسَبَبِ تَقَدُّمِ ذِكرِهم[2]، أو لأنّ المقصودَ أنْ يكونَ المُؤْمِنُونَ سواءً معَ الكافِرِينَ المُنَافِقِين، فكأنّهم هُمُ الأصلُ في كُفْرِهم، ويُرِيدُونَ أنْ يكونَ المُؤمِنُون مِثْلَهم تَمَامًا.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/152.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/170.

دِلَالَةُ الْإِطْلَاقِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾:

طَمَعُ الْمُنَافِقِينَ فِي شِدَّةِ انْحِرَافِ أَهْلِ الْإِيمَانِ حَتَّى يُسَاوُوهُمْ فِي ضَلَالِهِمْ

جَاءَ لَفْظُ ﴿سَوَآءً﴾ من قَوْلِهِ تعالَى: ﴿فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ خَبَرًا لـ﴿فَتَكُونُونَ﴾ وقد حُذِفَ متعلَّق التَّسوية، فأفادَ الْعُمُومَ؛ إذْ إنَّ حذف المتعلّق يُؤذِنُ بالعموم.

و﴿سَوَآءً﴾ في الأَصْل: مَصدرٌ واقعٌ مَوقعَ اسْمِ الفَاعِلِ، بمعنى مُسْتَوِينَ؛ ولذلك وُحِّدَ، كالواردِ في نَحْوِ: (رجال عَدْل)[1]، وجاءَ بِصيغَةِ الْمَصْدَرِ لِمَا فِي المَصْدَر مِنَ المبالغةِ في موضعِ الخَبَرِيَّة؛ أي: فتكُونُونَ سَوَاءً في طَرِيقَتِهم وشِرْعَتِهم؛ أي: في كلّ شيءٍ ممّا هو مِن مُقْتَضَيات الكُفْرِ، ومِنْهُ مَا هُم عَلَيْهِ مِنَ الارْتِكَاسِ والضّلال[2]، فهم يتمنّون كفرَكم لئلَّا يَشْعُرُوا بِفَضْلِكم عَلَيْهِمْ بِسَبَبِ إيمانِكم باللهِ تعالَى ورسولِه ﷺ، وما يَرَوْنَ لِلْمُؤْمِنِين مِن ظهورٍ في الدُّنيا حسدًا مِنْهُم[3]، ولِيشْعُرُوا بالرِّضا عَن كفرِهم.

وأفاد إطلاقُ ﴿سَوَآءً﴾ عَنْ تَقْيِيدِهِ بِمُتَعلّق خاصٍّ: تحذيرَ المؤمنينَ مِنْ أنْ يكُونُوا مثلَ الّذين كَفَرُوا، فالمآلُ هو الارْتِكَاسُ والضَّلالُ والتّيهُ والبعدُ عن اللهِ سُبحانَهُ.

دِلَالَةُ الْفَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾:

كُفْرُ الْمُنَافِقِينَ سَبَبٌ لِلنَّهْيِ عَنِ اتِّخَاذِهِمْ أَوْلِيَاءَ

الفاءُ في قولِه تعالَى: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ هي الْفَاءُ الْفَصِيحَةُ؛ لأنّ ما قبلها سببٌ في النّهي، فهي مفصحةٌ عن شرطٍ مقدّرٍ، والتّقديرُ: إذَا كَانَ حَالُهُم مَا ذُكِرَ مِن الودادَة؛ فَلَا تَتَّخِذُوا مِنهُمْ أَولِيَاءَ حَتَّى يُؤمِنُوا ويُحَقِّقُوا إيمَانَهُم بالهِجرَة[4]، وفي هذا الحَذْفِ: فتحٌ لآفاق التّدبّر وإيجازٌ واختصارٌ.

(1) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 6/549.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/88.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/89.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/213، والشوكاني، فتح القدير: 1/572.

ويجُوزُ أن يُرَادَ بالفاءِ التّرتيبُ والتَّعقيبُ؛ إذْ إنَّ اللّه تعالَى لَمَّا بيّنَ كُفرَهُمْ وشِدَّةَ غُلُوِّهِمْ فيه - وهو أمرٌ قلبيٌّ عَقَدِيٌّ - ؛ رتّب عليهِ كَيفِيَّةَ مُخَالَطَتِهم، فنَهَاهُم عَنِ اتِّخاذهم أولياءَ حتَّى يُهاجِرُوا في سبيلِ اللّه تعالَى، فأفادت الفاءُ أنّ مجموعَ مَا قبلَها - وهو قولُهُ تعَالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ - سببٌ للنَّهي عن اتِّخاذِ الأولياءِ منهم، وإنّما رُتِّبَ النَّهيُ على المجموعِ الّذي يدلُّ على شناعةِ ما أَبْطَنُوه لِلْمُؤْمنين؛ لِيسهلَ النَّهيُ عن اتِّخاذِهم أولياءَ.

سِرُّ تَقْدِيمِ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ ﴿مِنْهُمْ﴾ عَلَى الْمَفْعُولِ بِهِ ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾:

قُدّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿مِنْهُمْ﴾ على المفعولِ به ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ مِنْ قولِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾؛ لِلاهْتِمَامِ بالْمَنْهِيِّ عَنْهُ؛ لأنَّ النَّهيَ لا يتوجَّهُ إلى اتِّخاذِ الأولياءِ، بلْ هو موجَّهٌ إلى أَنْ يكونَ اتِّخاذُ الْكَافِرِينَ أولياءَ، فقُدِّمَ ما هُوَ مَحَلُّ النَّظرِ على الْمَفْعُولِ لِلْعِنَايةِ به، وأفادَ أنَّهُ إذا كانَ الاتِّخاذُ مِنْ غيرِ الكافرين - بأنْ يكونَ الاتخاذُ مِنَ الْمُؤمنينَ - أولياءَ؛ فَهُوَ مَطْلُوبٌ ومَحْمُودٌ.

الْمَنْهِيُّ هُوَ اتِّخَاذُ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ، لَا مُطْلَقُ اتِّخَاذِ الْأَوْلِيَاءِ

وفي تقديم الجارِّ والمجرورِ ﴿مِنْهُمْ﴾ علَى المفعولِ بهِ - زيادةً على الاهتمامِ - التَّشويقُ إلى المؤخَّر؛ وهُوَ ﴿أَوْلِيَآءَ﴾[1].

سِرُّ مَجِيءِ ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ جمعًا منكرًا في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾:

ورودُ النَّكرةِ في سياقِ النَّهيِ في قَوْلِهِ تعَالى: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ يفيدُ العمومَ، ويدلُّ على النَّهي عن اتِّخاذِهم في أيِّ نوعٍ مِن أنواعِ الولايةِ.

اتِّخَاذُ كَافِرٍ وَاحِدٍ وَلِيًّا هُوَ بِمَنْزِلَةِ اتِّخَاذِ جَمِيعِ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ

وَجاءَ ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ بصيغةِ الجمعِ؛ لِمراعاةِ جمعِ المخاطَبين؛ فإنَّ المرادَ نهيُ أنْ يتَّخذَ واحدٌ مِن المخاطَبين وليًّا واحدًا مِنْهُم[2]، فيكونُ

(1) القونوي، حاشية القونوي: 7/255.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/213.

الجمعُ على التَّوزيعِ على الأفرادِ؛ إذْ إنَّ مقابلةَ الجمعِ بالجَمْعِ تقتضِي القِسْمَةَ آحادًا، فليسَ المقصودُ النَّهيَ عَنِ اتِّخاذِ الجمعِ، وإجازةِ الواحدِ مثلًا.

ويَجُوزُ أنْ يكونَ المرادُ بصيغةِ الجمعِ إفادةَ أنّ مَنْ يتّخذ واحدًا مِنَ الْكَافِرِينَ وليًّا؛ فَكَأَنَّهُ اتّخذَ الْجَمِيعَ أَوْلِيَاءَ.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالْمُهَاجَرَةِ دُونَ الْهِجْرَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾:

قولُهُ سُبحانه: ﴿يُهَاجِرُواْ﴾ من الفعلِ (هَاجَر)، وهو على وزنِ (فاعَل)، وَفِي هذه الصِّيغةِ معنى المفاعلةِ، فالمهاجِرُ قد هَجَرَ القومَ، وهمْ قد هَجَروهُ؛ لأنَّهم لم يُؤْمِنُوا باللهِ تعالَى، فصارَ كلُّ مَنْ يفارقُ قومَهُ في سبيلِ اللهِ يقالُ له: مُهاجِرٌ، فهجرةُ رَسولِ اللهِ ﷺ جاءت؛ لأنَّ أهلَ مكَّةَ هَجَروه أوَّلًا وهجَروا دعوتَه، فاضطرَّ إلَى أنْ يخرجَ ويُهاجرَ[1]، بخلاف (هَجَرَ) فليس فيه من التَّرْكِ إلَّا من طرفٍ واحدٍ.

صِيغَةُ (هَاجَرَ) وَمَا اشْتُقَّ مِنْهَا لَمْ تَرِدْ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ إِلَّا فِي مَقَامِ الْمَدْحِ

وصِيغةُ (هاجَرَ) وما اشْتُقَّ منها لم تأتِ في القرآن الكريمِ إلَّا في سياقِ المدحِ[2].

بَلَاغَةُ الْحَذْفِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

قَوْلُهُ تعالَى: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، معناهُ: فلا تَتَّخذوا منهم أولياءَ حتَّى يُؤمِنُوا ويُهَاجِروا في سبيلِ اللهِ[3]، فَطُوِيَ ذِكْرُ الإيمانِ، وذُكِرَ البرهانُ عَلَيْهِ؛ لإلْزَامِ الخَصْمِ بطيِّ مناطِ المسألةِ، وذكرِ دليلِ تحقّقها؛ لأنَّ الإيمَانَ قد يدَّعيه مَن لَمْ يتحقَّق بِهِ باطنًا وظاهرًا، فلو عُلِّقَ الحُكْمُ على مطلَقِ الإيمَانِ؛ لادَّعَوْا تحقُّقَهُمْ بِهِ، ولكن نِيطَ الحكمُ بالهِجْرة وهي عملٌ ظاهرٌ، فيكونُ ذِكْرُها دليلًا ظاهرًا على صحَّةِ الإيمَان، فالذي يحقّق

الْإِيمَانُ شَرْعًا لَيْسَ اعْتِقَادًا مَحْضًا، بَلْ هُوَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ وَاعْتِقَادٌ

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 4/2530.
(2) الراغب، تفسير الراغب: 3/1378.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/170، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/88.

الإيمانَ ويُظهِرُ صِحّتَهُ وصِدقَهُ هو هجرةٌ للهِ تعالَى ورسولِه ﷺ لا لأغراضِ الدُّنيا.

ويَجُوز أَن يَكُونَ قولُه تعَالَى: ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ مِنَ الْكِنَايَةِ عنْ صفةِ الإيمان؛ فيكُون قَدْ ذُكِرَتِ الْهِجْرَةُ مرادًا بهَا لازِمُهَا، وهو الإيمانُ باللهِ سُبحانَهُ؛ ونكتَتُهَا: قرنُ الحُكْمِ بدليلِهِ والبُرهانِ عليه.

بَلَاغَةُ الِاسْتِعَارَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّـهِ﴾:

السَّبيلُ في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ جيءَ به على طريقِ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ الأصليَّةِ، وهي استعارةٌ شهيرَةٌ، وهو مستعارٌ لِلأَمرِ البَيِّنِ، بِمَعنَى الطَّريقِ المُوصلِ إلى مَرْضَاةِ اللهِ تعالَى تَشبيهًا لَهُ بالطَّريقِ الجَادَّةِ السالكةِ الواضحةِ، وفي هذَا إشعارٌ بأنّ السَّبيلَ الموصلَ إلى مرضاةِ اللهِ تعالى واضِحٌ وسالِكٌ.

الطَّرِيقُ إِلَى اللهِ تَـعَـالَى وَاضِـحٌ وَسَالِكٌ.

وزادَ هذه الاستعارةَ قبولًا واسْتِحْسَانًا ذِكْرُ المهاجَرَةِ معها، وهي نوعٌ من السَّيْرِ يُناسِبُها ذِكْرُ السَّبيلِ؛ لافْتِقَارِ السَّيرِ إلى طَريقٍ يُسَارُ عَلَيْهِ، فكان في ذِكْرِ السَّبيلِ ضَرْبٌ مِنَ التَّوريَةِ.

نُكْتَةُ تَقْيِيدِ الْفِعْلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّـهِ﴾:

قُيِّدَ الفعلُ ﴿يُهَاجِرُواْ﴾ بكونِهِ ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ولَمْ يطلقْهُ بأَنْ يُقْتَصَرَ على ذِكْرِ الْهِجْرَةِ، وذلك أنَّ الانتقالَ من دَارِ الكُفرِ إِلَى دَارِ الإِسلَامِ، ومِن شِعَارِ الكُفرِ إلى شِعَارِ الإِسلَامِ، ومِنْ عملِ الكفرِ إلى عملِ الإسلامِ قد يكُونُ لِغَرَضٍ دنيَوِيٍّ، فأَبَانَ قولُهُ تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أنَّ المُعتَبَرَ وُقُوعُ تِلكَ الْهِجْرَةِ لأجلِ أَمْرِ اللَّه تعالى.

الْهِجْرَةُ فِي سَبِيلِ الـلـهِ تَـعَـالَى بِـتَرْكِ دَارِ الْكُفْرِ وَشَعَائِرِ الْكُفْرِ وَأَعْمَالِهِ

وحُذِفَ متعلَّقُ المهاجرَةِ، لِيَدخُلَ فيهِ مُهَاجَرَةُ دَارِ الكُفرِ، ومُهَاجَرَةُ شعائرِهِ وأعمالِهِ[1]، ويلزمُ مِنْ تلك المهاجرةِ الانتقالُ إلى سبيلِ اللهِ تعالَى وطريقِ مَرضاتِه.

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 10/171.

سِرُّ إِضَافَةِ السَّبِيلِ إِلَى الِاسْمِ الْأَحْسَنِ (اللهِ) فِي قَوْلِهِ: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّـهِ﴾:

شَـرَفُ الْـهِـجْـرَةِ فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى

إضافةُ السَّبيل إلى الاسْمِ الأَحْسَنِ (اللّه) في قوله تعالى: ﴿يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ يُرادُ بها تعظيمُ المضافِ، وهو السَّبيلُ، ولازِمُ ذلكَ: تعظيمُ المُهَاجِرينَ وَرَفْعُ شأنِهم؛ حيثُ سلَكُوا هذا السَّبيلَ الجليلَ.

نُكْتَةُ تَقْدِيمِ الْأَخْذِ عَلَى الْقَتْلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ﴾:

جَـرَيَـانُ الْـقُـرْآنِ الْـكَـرِيـمِ فِي خِـطَـابِ النَّاسِ عَـلَـى وَفْـقِ مَعْهُودِهِمْ

قُدِّم الأخذُ - وَمِن معَانِيه: الأسرُ - على القتلِ في قولِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ﴾؛ لِتقدّمِه على القتلِ في العادةِ، والقرآنُ يكلّمُ النّاسَ على وفقِ مَعهودِهم، والمرادُ قتلُهم، ولو كانَ دُونَ أَخْذٍ[1].

مُنَاسَبَةُ التَّعبيرِ بِـ ﴿حَيْثُ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْۖ﴾:

(حَـيْـثُ) لَـفْـظٌ دَالٌّ عَـلَـى عُـمُومِ الْأَمْكِنَةِ

لمّا كانت ﴿حَيْثُ﴾ تقعُ على الجهاتِ السّتِ، وعلى كلّ مكانٍ؛ أفادت الإبهامَ في الأمكنةِ؛ لأنّها تصدُقُ عليها جميعًا[2]، ويُفسَّرُ الإبهامُ بما تضافُ له، وهي هُنَا جملةُ ﴿وَجَدتُّمُوهُمْۖ﴾ وهي مناسبَةٌ عمومَ ﴿حَيْثُ﴾؛ لإفادةِ معنى الوجودِ العمومَ كذلكَ؛ وذلك دالٌّ على الأمرِ بالقتلِ في عُمومِ الأمكنةِ التي يُتَحقّقُ وجودُهم فيها، ولِهذا قال القرطبيُّ: "﴿حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْۖ﴾ عَامٌّ في الأَمَاكِنِ مِن حِلٍّ وَحَرَم"[3]، ونظيرُ هذهِ الآيةِ ما جاءَ في قولِه تَعَالَى: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: 5]، وليس مِن كلمةٍ في العربيَّةِ تفيدُ هذهِ الدّلالةَ مَعَ إيجازٍ مثل لفظِ ﴿حَيْثُ﴾ في هَذَا السّياقِ.

(1) الخفاجي، عناية القاضي: 3/164.
(2) ابن يعيش، شرح المفصل: 3/114.
(3) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن: 5/308.

دِلَالَةُ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ بَيْنَ التَّأْكِيدِ وَالتَّأْسِيسِ:

الْمُبَالَغَةُ فِي النَّهْيِ عَنْ مُوَالَاةِ الْكَافِرِينَ وَنُصْرَتِهِمْ فِي كُفْرِهِمْ

قولُ اللّه تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكونَ تأكيدًا لِقولِه تعالى قبلُ: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾؛ والمرادُ: تقريرُ النَّهيِ عنِ اتِّخاذِهم أولياءَ.

والأظْهَرُ أنّ ذلك جاءَ على طريقةِ التَّأسيسِ لِمعنًى جديدٍ، فإنَّ قولَه تعالى: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ وردَ لِلنَّهيِ عَن موالاةِ الكافرين، ولم يمنعْهم مِن نُصْرتِهم، ثمَّ بيّنَ أنَّهم إنْ تولَّوا؛ أي: ارتدُّوا عمَّا أظهروه مِنَ الإسلامِ، وكشفُوا الغطاءَ بالكُفرِ، فلا يجوزُ أنْ توالُوهم، ولا أنْ تَنْصُرُوهُم بوجهٍ[1]، فأُكِّدَ النَّهيُ عَن موالاةِ الكافرينَ لِعظَمِ أمرِها وشُيوعِها؛ ولأنّ المناصرةَ تَسْتَتْبِعُها سببًا ووُجودًا، وأُتْبِعَتْ بالنَّهيِ عَنِ المُناصرةِ، وَأفاد مجموعُ قولِه تعالى: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ وقولِه: ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ الأمرَ بِمُجَانَبَتِهم بالكلّيةِ مجانبةً دائمةً[2].

دِلَالَةُ تَكْرَارِ ﴿وَلَا﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾:

التكرارُ لإفادةِ التّأكيدِ والنّهي على التّفصيلِ

تكرّرت ﴿وَلَا﴾ في قولِه تعالَى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ لإفادَةِ تأكيدِ النَّهْيِ عنِ اتخاذِ أيِّ واحدٍ مِنْهُم نصيرًا، ودلَّ التَّكرارُ علَى أنَّ النَّهيَ متوجِّهٌ لِكلِّ واحدٍ مِنْهُمَا على التَّفْصيل؛ لأنّهما قَد لا يَجْتَمِعَانِ، والمَعْنَى: لا تتّخذوا منهم وليًّا، ولا تتّخذوا مِنْهُم نصيرًا، فحُذِفَ الفعلُ ومتعلّقُه، وأُبْقِيَ المفعولُ به إيجازًا في الْكَلَام.

نُكْتَةُ تَنْكِيرِ ﴿وَلِيًّا﴾ وَ﴿نَصِيرًا﴾ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾:

جَمِيعُ أَنْوَاعِ وِلَايَةِ الْكَافِرِينَ وَنُصْرَتِهِمْ مَنْهِيٌّ عَنْهَا

ورد كلٌّ مِن ﴿وَلِيًّا﴾ و﴿نَصِيرًا﴾ مِن قولِه تعالَى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ نَكِرَتَيْنِ في سياقِ النَّهيِ، وأفادَ هذا التَّنكيرُ عمومَ

(1) الراغب، تفسير الرَّاغب: 3/1380 — 1379.

(2) الشهاب، عناية القاضي: 3/325، والقونوي، حاشية القونوي: 7/255.

نَهْيِ المؤمنينَ عنْ أيِّ نوعٍ من أنواعِ الولايةِ والحبِّ والودِّ، وكذا النَّهيُ عن أيِّ نوعٍ من أنواعِ النُّصرةِ سواءٌ أكانت باليَدِ أمْ باللِّسانِ أَمْ بالقلمِ أَمْ بغيرِها، ووجهُ العمومِ: وقوعُ النَّكرةِ في سياقِ النَّهْيِ.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع، سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 7 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-59-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 7 : سورة النساء من الآية 24 إلى الآية 114.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-59-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5066600 بتاريخ 2023/03/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»